

مؤلف الاستشراق من وجهة نظر مستشرقين(*)

أحمد أمين جلواني

مترجم باحث، خريج معهد فهد للترجمة

.1

مارتين كرامر: مقتطف من مؤلف "أبراج العاج على الرمل": إخفاق الدراسات شرق الأوسطية في الولايات المتحدة الأمريكية (مؤسسة واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، 2001)⁽¹⁾.

خلص كل من برنارد لويس، وماكسيم رودينسون، وجاك بيرك، وو. مونتغمري وات، وألبيرت حوراني - قيدومو الدراسات شرق الأوسطية والإسلامية في أوروبا - خلصوا جميعاً، وإن تباينت النقط التي انطلقوا منها، إلى نتيجة واحدة بشأن مؤلف "الاستشراق". فكل واحد منهم يرى أن تعامل سعيد مع الدراسات الغربية حول

.1 Ivory Towers on Sand: The Failure of Middle Eastern Studies in America (The Washington Institute for Near East Policy, 2001)

الشرق العربي والإسلامي حافل بنقط الضعف؛ فلويس - الذي هاجمه سعيد في مؤلفه "الاستشراق" - كتب ردا عنيفا، حاول من خلاله إبراز الطريق التي سلكها سعيد بغرض تحريف تاريخ الدراسات الاستشراقية. وخلص لويس إلى أن مأساة مؤلف "الاستشراق" تكمن في اختزال للمشكل والميل به إلى حد المجادلة السياسية المتعصبة والمليئة بالإهانة. أما المؤرخ الفرنسي، رودنسون، الذي قام سعيد بمدحه في مؤلفيه "الاستشراق" و"تغطية الإسلام"، فقد كتب أن "موقف [سعيد] النضالي، قاده، وكعاداته، إلى تضخيم الأمور" الشيء الذي "أثر سلبا على إنتاجات المستشرقين". أما الباحث الفرنسي، جاك بيرك، الذي مدحه سعيد هو الآخر في الاستشراق، فقد صرح أن هذا الأخير "لم يسد معروفا إلى بني جلدته إذ جعلهم يؤمنون أن هنالك تحالفا للقوى الغربية ضدهم". أما مونتغمري وات، الإسلامي البريطاني الذي لم يرد اسمه في الاستشراق، فقد توصل إلى أن سعيد ينظر إلى الكتاب من الزاوية الخطأ، ليجد نفسه مجبرا على القول بأن "سعيد متشكك أو جاهل تمام الجهل بالدين الإسلامي".

والأمر الأكثر دلالة هو أن المؤرخ البريطاني، ألبرت حوراني الذي عبر سعيد عن احترامه له في عدد من مؤلفاته بما في ذلك "الاستشراق"، هو الآخر له مؤاخذاته على مؤلف سعيد؛ فقد عبر عن أسفه للعنوان الذي اختير "للاستشراق" بقوله: "إن اصطلاح الاستشراق، وبفعل الاستعمال، بات اليوم متسخا، وإن كان من المفروض أن يبقى هذا الاصطلاح مرتبطا بحقل معرفي يحظى بالاحترام الكامل". كما يأسف حوراني أيضا للطابع المتطرف الذي يتسم به الكتاب قائلا: "أعتقد أن سعيد تجاوز الحدود عند قوله أن المستشرقين صنعوا لنا شرقا مسلسلا إلى القوى الامبريالية." ويعيب حوراني على سعيد إغفاله - ولربما عمدا - في مؤلفه "الاستشراق" عددا من الأشياء من بينها تجاهله للتقليد الأدبي وفلسفة التاريخ الألمانيين اللذين يشكلان التيار المركزي لدى المستشرقين". ولا يحتاج الشخص إلى بدل الجهد لفهم الحكم النهائي الذي يصدره حوراني حول "الاستشراق": "يمكنني القول بأن مؤلفات سعيد الأخرى رائعة، خصوصا ذلك الكتاب عن القضية الفلسطينية؛ على الأقل كان البنيان الحجاجي فيه مرصوفا".

ويمكننا القول أن الذع ما تلقاه مؤلف "الاستشراق" من نقد قدم من أوروبا التي كان لعدد من قرائها نظرة، كما جرت عاداتهم دائما، مبنية على أسس متينة. في حين،

أضحى هذا المؤلف في الولايات المتحدة الأمريكية الكتاب المقدس لمجال معرفي عرف باسم الدراسات البوستكولونيالية (Postcolonial Studies)، وحقق رقما قياسيا في ما يخص المبيعات، وألهم عددا من الكتب، والبحوث الجامعية بما في ذلك رسائل الدكتوراه. فقد تمت الإشارة إلى هذا الكتاب، والاقتراب منه، وإقرار صحاح معلوماته في مواقع عدة قد يصعب على أي باحث أن يحصيها (أشار المؤرخ الأمريكي، دافيد كوردن، على أن "الاستشراق" "أصبح يتمتع بنفس حجية القرآن في بعض المجمع"). ويعد "الاستشراق" ظاهرة شقت طريقها شيئا فشيئا لتتربع اليوم على عرش الدراسات الشرق الأوسطية. فقد صرح فيليب خوري، رئيس جمعية الدراسات شرق الأوسطية، في خطابه الرئاسي أن سنة "1978 سنة غير عادية بالنسبة للكتب في الشرق الأوسط". "مؤلف" "الاستشراق" لصاحبه إدوارد سعيد ظهر هو الآخر في تلك السنة؛ وأنا أتساءل إذا ما كنا سنعيش سنة أفضل من تلك؟" وتبقى قصة "الاستشراق" كمؤلف - كيف ولم تمكن من إحراز السبق - وثيقة الصلة بالطريقة التي فقد بها مؤسسو الدراسات شرق الأوسطية في الولايات المتحدة الأمريكية هدهدهم؛ وهي - قبل كل شيء - حكاية أمريكية خالصة.

(...)

[حري أن نشير في معرض حديثنا هذا] أن مؤلف "الاستشراق" لم يقبل رفوف الكتب فحسب، بل تجاوز ذلك إلى هز الكراسي؛ فقد أصبح بمثابة بيان رسمي للعمل الإيجابي لدى الباحثين العرب والمسلمين، ومهد لنزعة سلبية تجاه الباحثين الأمريكيين وأولئك القادمين من أوروبا. ففي سنة 1971، كان 3.2% فقط من المتخصصين في الشأن شرق الأوسطي من مواليد تلك المنطقة، و16.7% ممن يتقنون اللغة وقيمون في إحدى بلدان الشرق الأوسط. لقد صرح رئيس جمعية الدراسات شرق الأوسطية في سنة 1992 قائلا: "لقد تغيرت هويات المنخرطين بمرور السنين وأصبح نصف أعضاء الجمعية من أصول شرق أوسطية".

بطبيعة الحال، يفضل سعيد أن يقدم الدراسات شرق الأوسطية على أنها ساحة للنصر الأيديولوجي. ففي سنة 1993، كتب سعيد عن "التغيير المذهل الذي مس الدراسات شرق الأوسطية والتي كانت وقت كتابته لمؤلفه "الاستشراق" لا تزال تتسم بخطاب ذكوري قوي ومتعال. ويستطرد بعد ذلك قائلا: "في الثمانينات من القرن الماضي طرأ تحول إيديولوجي مهم

على جمعية الدراسات شرق الأوسطية المحافظة آنذاك... ما حدث لهذه الجمعية إذن هو قصة ذات خصوصية ميترابوليتانية (metropolitan) للمعارضة الثقافية للمهيمنة الغربية". وفي واقع الأمر، ما كان أن يحدث مثل هذا التغيير الشامل في أيديولوجية الجمعية - التي منحت سعيد العضوية الشرفية - لولا أن شهدت التشكيلة العرقية المهمة بالدراسات شرق الأوسطية تعددا وتنوعا. في سنة 1988، قام مؤرخ شاب بوصف الآليات التي ساهمت في تفعيل التغيير قائلا: "رغم أن أي اسم عائلي يشير إلى طبيعة الانتماء العرقي لا يقصي ولا يجب أن يقصي المدرس من القيام بمهامه، فأنا أظن أنه يمثل أهمية أكبر بالنسبة لمجموعة بحث بصدد اختيار مرشح لمنصب في تاريخ الشرق الأوسط الحديث منه لو كانت بصدد اختيار مختص بتاريخ فرنسا الحديث أو التاريخ الاستعماري لأمريكا اللاتينية". وأشار باحث شاب في علم السياسة إلى "شروع الإحساس الذي لا يمكن توثيقه بأن الانتماء العرقي للفرد أو قناعاته السياسية لهما تأثير على قرارات توظيفه والاحتفاظ به في منصبه". ومن أجل هذا يستحق سعيد بالتأكيد كل التنويه. فبعد مضي عشرين سنة على صدور مؤلفه، هاهو جمهور جمعية الدراسات شرق الأوسطية في شكلها الجديد يرحون كراسيهم ليقفوا وقفة إجلال له؛ تلکم الكراسي التي ما كانوا ليحصلوا عليها لولا "الاستشراق".

2.

مالكوم كير: مقتطف من "الاستشراق لصاحبه إدوارد سعيد" الدورية الدولية للدراسات شرق الأوسطية، المجلد 12 (دجنبر 1980)⁽²⁾.

يذكرني هذا الكتاب [الاستشراق] بالبرنامج التلفزيوني "أثلتيس إن أكشن" (Athletes in Action)، حيث يتنافس لاعبو كرة القدم المحترفون في السباحة وغيرها من الرياضات. إدوارد سعيد الناقد الأدبي الموهوب استطاع حقا أن يقفز إلى الماء. ولكن هذا النوع من الجهد لن يمكنه من الفوز بأي من السباقات الرئيسية. هذا شيء مؤسف للغاية؛ ذلك لأن مؤلفه [الاستشراق] كان من الضروري كتابته، وقد توفر لصاحبه مادة غنية. لكن رغم

2. "Edward Said, Orientalism" International Journal of Middle Eastern Studies, vol. 12" (December 1980), pp. 544-547.

كل هذا فقد باء جهده بالفشل. فالكتاب، وإن كان يحوي مقاطع رائعة وسجل نقاطا غاية في الدلالة، إلا أنه تم إفساد ذلك من خلال الحجاج المتعصب "المقاضاتي" (prosecutorial) والذي وقع فيه البروفيسور إدوارد سعيد وهو يحاول باندفاع رسم إطار عام دفعه إلى القفز إلى خلاصات متسرة. وفي الحين الذي يتهم سعيد مجموع الدراسات شرق الأوسطية الأوروبية والأمريكية بالاختزال والكاريكاتورية، فقد أعاد ارتكاب نفس الخطأ.

ويبقى خطأ سعيد خطأ مزدوجا فيما يخص تعامله سواء مع التجربة الفكرية للاستشراق أو مع الكتابات السياسية المعاصرة حول الشرق الأدنى. فيما يتعلق بالاستشراق كتيار، وقد أخذ حيزا كبيرا من اهتمام المؤلف، فإن لسعيد اطلاعا واسعا وإن كان انتقائيا وأسلوبه يتميز بالتأمل والإدراك العميق. وقد كان من الممكن أن ينهي صولته تلك لو اكتفى بخلاصات أكثر انضباطا وتركيزا.

فسعيد أراد أن يظهر (وقد نجح في ذلك إلى حد ما) كيف أن عددا من الكتاب والرحالة الفرنسيين والبريطانيين من القرنين الماضيين نزعوا إلى رسم صورة للشرق الأدنى كثقافة تتسم بالغرائية، والانحلال، والشهوانية، والتعصب والاختلاف، توطرها تقاليد العقيدة الإسلامية بالأساس؛ العقيدة التي لا تخضع لمبدأ التغيير لعدم قدرتها لا على التطور ولا على الإصلاح والتحضر. وتُصور لوحة ج. ل. جيروم، التي تعود إلى القرن 19، المعنونة "الحاوي" (The Snake Charmer) جميع هذه الأمور؛ إذ تعرض فتى عار في الرابعة عشرة من عمره، تحيط كوبرا بجسده، يقف أمام أمير شرقي ملتج يجلس وبطانته إلى حائط مزوق بأجور مزركش بنفحة شرقية، تتم نظرتهم عن رغبة جامحة في القتل، في حين يلعب موسيقي نحيف على مزمار من قصب - وتذكرنا تلك اللوحة بالتحريف الصارخ الذي طال صورة المسلم الشرقي على يد "هوليود" و"هيربلوك" (Herblock). وقد سعى سعيد، من خلال مؤلفه، إلى إظهار كيف أن هذا التصور ليس فقط تعبيرا مرتبطا بالصراع العربي الإسرائيلي أو أزمة النفط، بل هو جزء من المشهد الثقافي الغربي الذي دام لقرن كامل.

لكن انتقاء سعيد للكتاب الأوروبيين أسقط فريقا كبيرا من الأسماء اللامعة وهي معروفة لكل طالب يحمل إجازة في الدراسات الإسلامية. ويتعلق الأمر ب كولدزيهير (Goldziher) وسنوك، وهوركرونجي (Snouck Hurgronje)، وبيكر (Becker)، ونايدليك (Nildeke)، وفيلهوسن (Wellhausen)، وكابرييلي (Gabrieli)، وليفي دو لا فيدا

(Levi Della Vida)، وشاخت (Schacht)، روزينطال (Rosenthal) وكوتين (Goitein) وكلهم لا تربطهم صلة بالقوى الإمبريالية الرئيسية: بريطانيا وفرنسا. ومن الذين تم إقصاءهم أيضا من طرف سعيد كبار المستشرقين المعاصرين في بريطانيا وفرنسا أرييري (Arberry)، وهوراني (Hourani)، وواط (Watt)، وكواسون (Coulson)، وجيلنير (Gellner)، وإيفانس ريتشارد (Evans-Pritchard)، وكاين (Cahen)، برانسفيك (Brunschwig)، ولو تورنو (Le Tourneau)، ولاووست (Laoust)، وكارديت (Gardet)، ورودينسون (Rodinson)، وميكيل (Miquel) ويرك (Berque) وهذا عدد كبير جدا. وفي الولايات المتحدة الأمريكية - حيث انهم سعيد مؤسسة الدراسات شرق الأوسطية بعملها على إحياء الأطماع الكولونيالية في العالم الإسلامي - اقتصر اقتباس سعيد على بضع وجوه فقط كبرنارد لويس (Bernard Lewis) وكوستاف فون كرانبوم (Gustave von Grunebaum) (وكلاهما هاجرا من أوروبا صوب الولايات المتحدة الأمريكية ليستقرا هناك)، بالإضافة إلى مورو بيرجير (Morroe Berger)، مانفريد هالبيرن (Manfred Halpern)، وليونارد بايندر (Leonard Binder) وعدد من الإسرائيليين ممن لا يمتون للموضوع بصلة كتابي (Pata) وحرقابي (Harkabi)، لا لشيء سوى للتأسيس إلى وجود ضغينة ضد المسلمين والعرب.

وأي كانت مصداقية هؤلاء الباحثين - ولعل بعضهم أفضل من سعيد - فهم اليوم لا يحتكرون الدراسات شرق الأوسطية في الولايات المتحدة الأمريكية. ولو أن سعيد أطال التمعن في الأمر، لكان قد حصل على نتائج مختلفة. إن سعيد يشير بأنه في فترة فيليب حيطي (Philip Hitti) "أنتجت جامعة برنستون مجموعة كبيرة من الباحثين المتميزين. وقد حفز صنف الدراسات الاستشراقية فيها اهتماما أكاديميا كبيرا بمجال الاستشراق". لكنه وبشكل غريب يتجاهل كل أولئك الباحثين، بما في ذلك و.س. سميث، و.ج. هوراني، و.ن.أ. فارس، و.س. زريق، وإ. شهيد، وأبو اللغد، وهي تي نفسه؛ وهؤلاء لا يمكننا أن نتهمهم بمعادة الدين الإسلامي. ولكن، إن كانت جامعة برنستون قد أنتجت صنفا أفضل من الدراسة الاستشراقية، فما السبب في ذلك؟ وماذا عن الباحثين العرب المسلمين الذين يعملون بالكليات الأمريكية الذين أقصاهم سعيد مثل ج. مقدسي، وف. رحمن، وم. مهدي، وف. زيادة، وم. خاضوري، وس. عيساوي، وهشام شرابي، وأ.ل. مرسوت؟ وبالتأكيد كمجموعة، فقد كان لهم تأثيرهم على الجمهور تماما كما كان لقائمة المستشرقين عند سعيد وبالقطع فلم يكونوا ممن سلبتهم التقاليد الاستشراقية تصوراتهم النقدية.